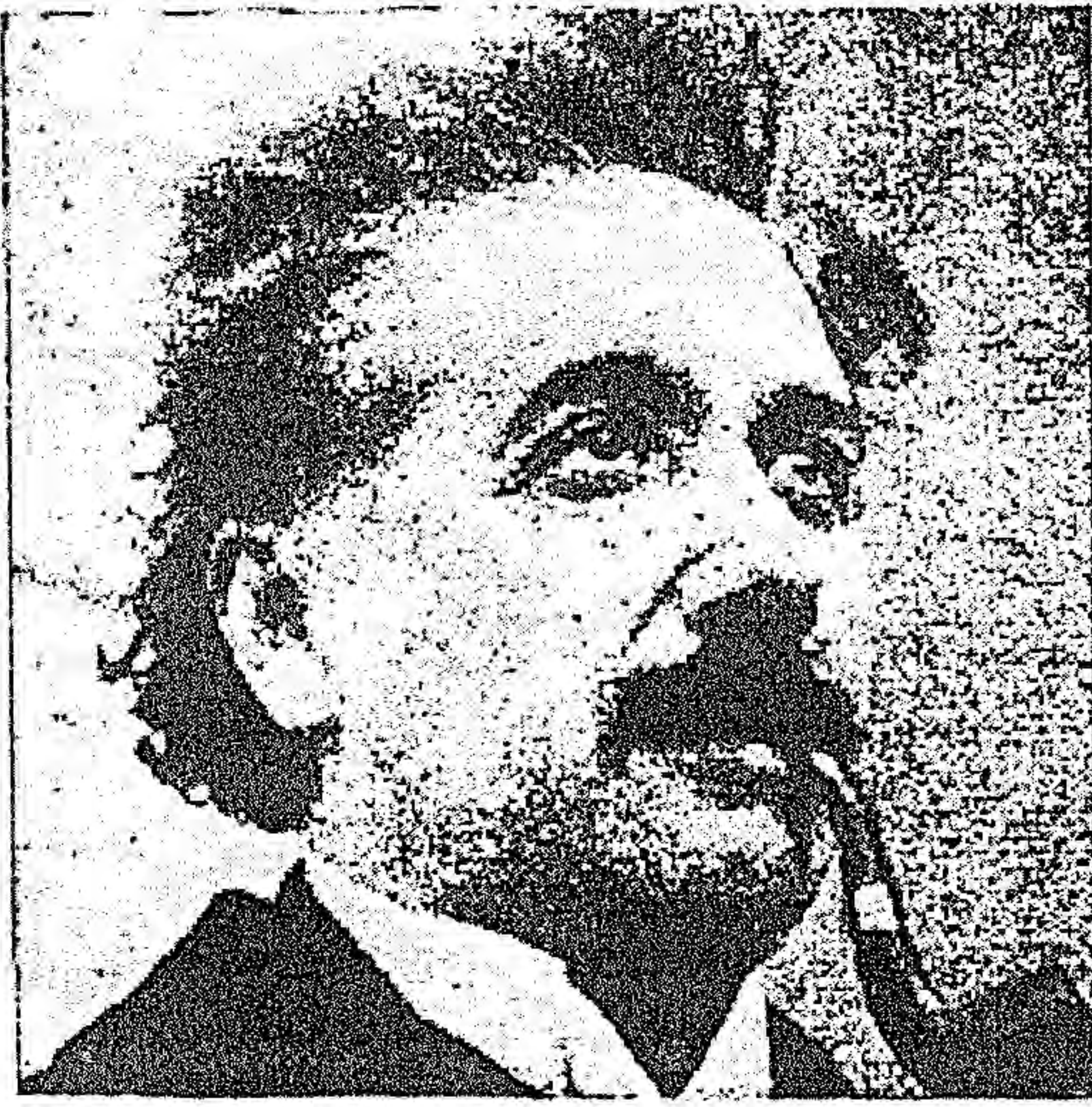


فلسفة النسبية

أو النسبية وما بعد الطبيعة (١)

كثيراً ما يخطئ الباحثون والفلاسفة في تطبيق اصطلاح ما بعد الطبيعة — الغيبيات — على نظرية النسبية الحديثة . فلقد مضى كثير من العلماء يعتقدون بأن مباحث الغيبيات على تبين نواحيها وتشعب مناحيها هي العقبة الكؤود التي تصد العلوم الطبيعية عن التقدم والارتقاء . أنزلها في هذه المنزلة فئة من الباحثين ظهوروا في خلال ذلك العصر الذي تقدمت فيه العلوم الاثباتية اليقينية لتأخذ مكانتها الخلية بها في سلم المعارف الانسانية . ولقد ماشى الباحثون أوغست كونت في طريقه هذه ، حتى لقد اعتقدوا بأن مباحث الغيبيات هي الباعث على ذبوع الجمود الفلسفي Philosophical Obscurantism ولا تزال هذه الآراء عالقة بهذه المباحث الفلسفية منذ ذلك العهد . غير أن مباحث العصور الاخيرة كانت كفيلاً بأن تبرز فئة من العلماء يقولون اليوم بأن مباحث الغيبيات الفلسفية يجب أن تسد فراغاً ما في ترتيب العلوم الانسانية . قيل إن تعريف أرسطر طاليس لما بعد الطبيعة — الغيبيات — بأنها « البحث في الاشياء التي تقع وراء المحسوس » ، لا يسوق بنا الا الى جهة مظلمة لم نتعرف بعد شيئاً من طبيعتها ، والاحتمال الغالب أننا لن نبلغ منها بشيء من العلم الصحيح . وكثيراً ما تطالع الباحثون الى تلك الجهة المهمة الغامضة من الفلسفة ، ولكنهم لم يدركوا من ماهية ما تناولته بحائهم شيئاً ، لا بالحس النظرى ولا بالاختبار العملى . وعلى ذلك تكون مباحث ما بعد الطبيعة في النفس وأصل الكون وعلة العلل وما الى ذلك ، تصورات مجردة ، وليست بموضوعات يمكن أن نبلغ منها بمعرفة بالمعنى العلمى المحض . أو أنها — في اعتبارهم على الأقل — موضوعات لا تتناولها طرائق العلم الاختبارى . غير أن التسليم بصحة مثل هذه المزاعم لا محالة يؤدي بنا الى اطراح كل التقاليد العلمية التي ورثناها عن الاقدمين حتى الآن . ذلك لأن العلوم الحديثة على ما هي عليه

الآن نتاج لتحدى الطريقة الاختبارية في البحث وتطور وجوه النظر فيها على مدى الازمان . في حين أن هذه الطريقة الاختبارية ذاتها ، وهي الأصل الذي تقوم عليه العلوم الحديثة ، ليست مسألة واضحة بذاتها كما أنها ليست بمسألة نظرية عقلية تقوم في النفس بطبيعتها ومهياتها الخاصة بها . ذلك لأنها تحتاج الى فكرة مجردة ، وادراك العقول لها لا يمكن أن يتم إلا بالرجوع الى مبادئ المجردات الغيبية أما التفريق بين طريقة العلم الاختباري ، وبين المبادئ التي تقوم عليها الغيبيات ، ووصفك الاولى بأنها مبعث العلم ومستكنه ، ووصفك الثانية بأنها منشأ الجهالات والتطوح وراء ما لا يمكن معرفته ، مسألة لا نستطيع على أى وجه من وجوه الرأى نقلها ، أن نتوخى للنظر فيها سبيلا يبعدها عن التناقض والابس بل اننا لا نخطئ اذا قلنا بأنها مضادة لبديهية العقل .



الشتين

أما السبب الذي أدى الى القول بأن مباحث الغيبيات أشياء بعيدة عن العلم الصحيح أو أنها خطرات وهم وتصورات خيالية ، فذلك المنزلة التي تنزلها علوم الطبيعة من الرياضيات الصرفة . في حين أن الرياضيات لا تلجأ الى الطريقة الاختبارية مطلقاً ومع هذا فإنها تقع في ترتيب العلوم وتبويبها وعلاقة بعضها ببعض موقعا .

تقوم فيه بذاتها مستقلة عن غيرها ، فتعتبر دعامة وأساساً يبنى عليه لتشييد العلوم العليا في المعارف الانسانية . والرياضيات فوق ذلك علوم جامدة تتناول الكميات فقط . وبذلك تفقد الصفة الجوهرية التي تتطلبها العلم الاختباري . تفقد صفة الاشتقاق . وهذه فجوة لا يسد فراغها الا الغيبيات .

في عصر الفلسفة الحديثة ، منذ ديكارت حتى اليوم ، زاد على العقول ضغط المسألة العامة . وما تقصد بذلك الا أننا اذا أردنا أن نحصل على الحقائق الثابتة ، فزمننا أن نرجع الى العلوم الطبيعية نستدر وحياً من طريق الاختبار . ولقد حلت الفوائد التي أحس بها الناس من مزاولة العلم الطبيعي وحقائقه الملموسة ، محل اللذة

التي كان يتذوقها الناس في فلسفة القرون الوسطى . تلك التي حصرت همها وبذلت كل جهدها في البحث في أصل النفس الانسانية ومنقلبها خاصة ، وفي علاقة الانسان بالله عامة . وانا اذا قلنا اليوم بأن الفلسفة الحديثة تشارك الفلسفة اليونانية القديمة في أمر ، فليس ذلك في النتائج العملية . لأن الفلاسفة اليونانيين ، ان كانوا في الواقع رياضيين قبل كل شيء ، فلم يكن لهم من فكرة في الاسلوب العلمي كما نطبقه اليوم . وكذلك نشك فيما كان يمكن أن يكون من تقبلهم لهذه الطريقة على قواعد عقلية عملية صرفة ، حتى اذا كانوا عرفوها .

ان مبدأ النسبية نتاج مباشر لتطبيق الطريقة الاختبارية . والواقع أن هذه الطريقة لا تستمد قوتها وتأثيرها في العقول الا من طريق ثقتنا التامة بما ندرك من حقائق الغيبيات ، التي هي أساس هذه الطريقة والمرجع الوحيد الذي يعود اليه السبب في وضعها . ولقد أحاطت الطريقة الاختبارية بالعقل الحديث احاطة تامة . فكأنها شيء يملك من العقول ما تملك الصفات الوراثية الفطرية الثابتة منها فاذا اثبت الاختبار أن مقداراً من السرعة يكون ثابتاً تحت تأثير حالات يخيل اليها معها أنها متغيرة غير ثابتة ، أو اذا دلت التجارب على أن الحركة المستمدة من منبع من الضوء لم تؤثر أثرها المنتظر في سرعة انتشاره ، فهناك نضطر الى تعديل ادراكنا للصورة التي تتكيف بها الحقيقة عندنا بما يوافق نتيجة التجربة أو الاختبار .

مضى الناس يعتقدون بأن المكان والزمان شيئان ثابتان نرجع اليهما في الحكم والقياس . فلما تقضت نتيجة الاختبار هذه الفكرة ، اذ ثبت أن المكان والزمان ليسا الا ظلالاً متنقلة ماضية في التغير والاختلاف ، رجعنا الى القول بأنه لا يبقى من شيء ثابت الا نسبة سرعة الاجرام ، لانها وحدها تبقى ثابتة خلال تغير الحالات العامة . أي اننا عدلنا ادراكنا للصورة التي تحيزت بها الحقيقة في عقليتنا بما يوافق نتائج التجارب .

والذين يعتقدون بان النسبية مبدأ رياضي صرف ، وينفون علاقتها بالغيبيات - ما بعد الطبيعة - يكرهون أو هم يستنكرون تدخل الغيب في بلاغة معادلاتها الجبرية ، ويدركون تلك النظرية ادراك من يعتقد بانها مسألة أسلوبية صرفة لا تختص بشيء الا بالقياسات الكمية الجامدة ، وانها بذلك تستعيز بطائفة من

المعادلات الاصطلاحية على مافيها من الصعوبة أو الغموض الشديد ، عن أشياء آخر أسهل منالا وأقرب استيعابا ، فتقصيها عن طريق البحث حبا في الضبط المطلق كما يقولون ، واستماتة في احكام اطراف البحث والاستقصاء . ولقد يلوح الى أن الذين يعتقدون بهذا الاعتقاد لا يقدرّون هذه النظرية قدرها ، ولا ينزلونها من الخطر منزلتها الحقيقية . فأن هذه النظرية لا يمكن أن تفهم تمام الفهم الا اذا توبع بحثها من طريق علاقتها التاريخية بما دعم عطاء الفلاسفة وأقاموا من أركان الغيبيات

لقد ظلت المذاهب الفلسفية منذ عهد ديكارت دائرة حول نقطتين اثنتين . حول المادة وما أدرك العقل الانساني منها ، وحول العلة ونظرية النسبية بناحيتهما ، ناحيتها الخاصة ، وناحيتهما العامة ، لا يخرج النظر فيها عن هاتين المسألتين . المادة والعلة . أما الناحية الاولى من النسبية ، بما تسوق اليه من انكار فرض الأثير ، فهي تعتبر بمثابة تعديل فيما كنا ندرك من المادة . والناحية الثانية بما في نظريتها الحديثة في الجاذبية من تأثير التعادل في قوة جاذبة مفروضة ، قد عدلت فيما كنا ندرك من العلة

ولقد جرت الفكرة في المادة والعلة الى التناحر بين مبدأين ظلا يتجاذبان العقل الانساني ليتغلب أحدهما على الآخر في العصور الحديثة . أخذ المبدأ الاول شكله وكيانه في الجهة الموضوعية Objective التي يمثلها الكون لعقل الباحث . وأخذ الثاني كيانه في الجهة الذاتية Subjective التي يمثلها العقل لذاته من قوة تفكيره وتصوراته ومقدار فهمه وارايدته وعمله .

أما المبدأ الاول فقد استقيناه من فكرة ديكارت في المادة والاجسام المادية حيث قضى بأنها لا توجد الا في مكان أو امتداد ، كما حكم بأن العلة تنحصر في الأثر الميكانيكي الصادر عن كمية محدودة من الحركة منبعثة عن خصائص المادة نفسها . فهي عنده عبارة عن مدرك آلي — ميكانيكي — يتضمن الكون كله بما فيه مما تناوله النظام وماسادت فيه القوضى ، لا يخرج عن تلك الآلية من شيء . الا الفكرات أو القوة المفكرة التي لا يمثلها الا النوع الانساني وحده . وتشكل هذا المبدأ من بعد ذلك في قالب صبته فيه فكرة نيوتن حيث قال بالزمان المطلق والمكان المطلق . فالزمان المطلق في ذاته وبحكم طبيعته الخاصة به يفيض بنسب

متعادلة ، اذا لم يكن لشيء من الاشياء الخارجة عنه أية صلة به . وكذلك المكان المطلق يظل في طبيعته وماهيته واحداً لا يتغير ولا يتحرك ما لم يكن له اتصال بشيء خارج عنه .

وأما المبدأ الثاني فتمثله فكرة ليبنتز في الرأي الذرى - *Monadology* - اذ يقضي بان المادة ليست منفعة بل فاعلة ، وأن الحركة ليست علة الـكون ، بل أن القوة هي العلة فيه ، وان ما لا ينتج شيئاً لا يمكن أن يكون بشيء ، وأن الزمان والمكان اعتباريان ، وأن الاشياء المادية مراكز تنبعث عنها قوة فاعلة مؤثرة من طريق هذه الأفكار التي ذاعت في المادة والعلة ، تأتي علاقة النسبية . وهذه الأفكار ليست الا من اوضاع الغيبيات في أخص معانيها . والحقائق الآتية من طريق الاختبار ، وان كانت السبب الذي ساق في الواقع إلى تكوين الفكرة في النسبية تكويناً علمياً ، الا أن هذه الحقائق بذاتها لم يكن لها من أثر عملي في ابراز هذه الفكرة الا قليلاً . أما النتائج النظرية المنترعة من هذه الحقائق فهي التي كفلت تغيير أوجه النظر العلمي وطريقة التفكير العلمية . واذا نظرت بتأمل الفيت أنها حقائق ثبت أنها حاسمة من ناحية النظر في مشكلات ما بعد الطبيعة . فالمعاملات التي تناولتها هذه الحقائق بتغيير لم تتجاوز أشياء تناهت في الضؤولة وحقارة الشأن ، كاختلاف التقدير في ٤٢ ثانية في قرن من الزمان ، أو خطأ في ٢ ١/٢ بوصة من محيط كرة الارض . اذن فليست الحقائق بذاتها هي التي يعظم عندنا خطرها ، بل ان خطرها ينحصر في ما يترت عليها من النتائج . ولقد أظهر العلامة ويلدون كار الذي نلخص عنه هذا المقال في كتابه « نظرية النسبية من وجهتيها الفلسفية والتاريخية » ان هذه النظرية قد اثبتت بما لا سبيل الى أدخاضه طبيعة هذا الـكون الذرية - نظرية الجواهر الفرد القديمة التي وضعها ديمقريطس . وقضت علينا بأن لا نجعل علومنا مرتكزة في أساسها المدعم المتين على حقيقة نتخيلها منفصلة عن الذرات المادية ، بل على العكس من ذلك جعلتنا نستمد حقائقنا من قوة كامنة داخل الذرات نستطيع أن نعالم بها الظاهرات الطبيعية ونوفق من طريقها بين الآراء المختلفة التي ظلت حتى اليوم تتنازع البقاء في العقل الانساني

ان أخطر المسائل التي تركز عليها النسبية في علاقتها بما بعد الطبيعة ، تنحصر

في موقفها السلبي تلقاء ما كنا نعتقد في الزمان والمكان باعتبارها شيئان مطلقان يتبع أحدهما الآخر بنسب مستمرة دائماً . ونظرية النسبية تتقبل النتائج الحاسمة التي تؤدي إليها الاختبارات التي تضاد الحقائق الطبيعية التي تثبت عدم وجود شيء من النسبة المستمرة بين الزمان والمكان ، وترفض بحكم مبادئها أن تعترف بضرورة الاعتقاد بديئاً بشيء وهمي خيالي يقال له « الزمان المكاني » المطلق ، باعتبار أنه شيئاً لا يعتريه الاختلاف بنسبة الناظرين إليه . وهي فوق ذلك تزودنا بمعادلات اصطلاحية تبين لنا أن حقيقة حادثة من الحوادث التي تقع في الكون تبقى ثابتة في نظر رائيين ولو نظر كل منهما إليها من جهة بعينها في النظام الكوني ، من غير احتياج للقول بنظام ثابت مطلق تفرضه خارجاً عن نظام الجهة الكونية التي يكون فيها كل منهما

الخطرة النفسية وموضوع الذهن

بحث عامي فلسفي

إن كل خاطر يمر بالنفس ، وكل فكر يعن لنا هو عبارة عن وحدة قائمة بنفسها وجوهر بسيط غير قابل للانقسام . فلا أجزاء له ينحل إليها ، ولا ذرات بسيطة يتألف منها . بل ولا يوجد تشابه بين فكر وفكر ، ولا تجانس بين هاجس وهاجس اللهم إلا تشابه نوعي كما تشبه أفراد النوع بعضها بعضاً مع بقاء كل منها جوهرًا مستقلاً بنفسه . فإذا تكرر فكر من الأفكار في الذهن ، فإن الفكر العائد هو فكر جديد كل الجدة ، وليس له أية علاقة بشبيهه البائد ، إلا من حيث التشابه النوعي فقط وقد وهم بعض الفلاسفة وظن بأن الفكر ليس وحدة قائمة بنفسها ، بل أن ماهيته مركبة من أجزاء دقيقة ، وذرات بسيطة يتألف من تركيبها الفكر المنشود فتعود الحالة النفسية بذاتها إذا تم اجتماع تلك الذرات وتألفت تلك العناصر المكونة لها على هيئتها السابقة . بيد أن الأبحاث الحديثة في علم النفس قد بددت ذلك الخطأ ، وأرتنا أن سبب تكرار الحالة الذهنية يرجع إلى أن لكل خاطر أو فكر يمر بالنفس موضوعاً خاصاً تستغرق فيه الحالة النفسية ، إذ لا يمكن تصور